ثمرات المطابع

فلسفة النشوء والارتقاء [1]

قال بعضهم يوماً للدكتور شميل : « انك لمصيبة على الناس، لمغايرتهم في افكارهم . » فأجابه الدكتور : « اذا جازت الشكوى فمن منا أولى بالشفقة، أنتم الذين مصيبتكم بي واحدة ، أم انا الذي مصيبته بكم متعددة ! »

هذه النكتة التي رواها الدكتور في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه « فلسفة النشوء والارتقاء » — وهو الجزء الاول من مجموعتهِ التي هي قيد الطبع — تصوّر احسن تصوير موقف الدكتور شميل تجاه البشرية . . . ويعرف ذلك أتمَّ معرفة من جالسهُ وباحثهُ فسمعهُ يتذمر ويتأفف من حالة المجتمع الانساني وخرافاتهِ وسخافاتهِ ، شأن الذين لم يفهمهم معاصروهم . . .

صاحب « كتاب فلسفة النشوء والارتقاء » اشهر من نار على علم ، قضى ثلاثين سنة ونيفاً وهو يحارب ويقاتل بقلمه — لانه لم يكتب الاَّ ليشن الغارة على ما يراه من الاوهام في ابناء جنسهِ — وهو من هذا القبيل أجرأ كاتب عرفناه في الشرق ، وامثاله في الغرب ليسوا بالعدد الكثير . يبحث وينقب ويستقري ، مستنيراً بنور العقل والطبيعة ، ولا يخشى في اعلان نتيجة بحثه واستقرائه ولو كان فيها ما يغضب ويؤلم ويخالف معتقد عموم الناس — وهي كثيراً ما تكون من هذا القبيل . وكفى برهاناً على ذلك

---

(١) طبع بمطبعة المقتطف عدد صفحاته ٣٧٠ ثمنه ستون غرشاً وهو الجزء الاول من مجموعة الدكتور شميل . وبدل الاشتراك في المجموعة كلها جنيه واحد

انه قام ينشر في الشرق مذهب دارون وشرح بختر عليهِ يوم كان انصار هذا المذهب في أوربا نفسها لا يتجاوزون عدد الاصابع . ولذلك قامت القيامة على هذا الكاتب الجديد الذي كان يريد ان ينقض كل ما بناه اسلافه . ولكن كل ذلك لم يثبط منه العزائم ولم تزده المعاكسات الا رسوخاً في آرائه حتى الفها الناس منه ولو لم يوافقوا عليها . وتعودوا سماعها الآن من طبيبهم وفيلسوفهم الشيخ بعد ان استكبروها من الشاب منذ ثلاثين سنة . والثبات على المبدأ — أيّاً كان — والتفاني في سبيله لما يدعو الى الاعجاب بصاحبه . ولو كان الدكتور شميل مؤمناً ، لكان من أحرّ المبشرين واعظم الشهداء . لانه من الفئة المهاجمة في هذه الدنيا لا الفئة المدافعة . ولذلك هو الآن مبشر حار ، ومؤمن متعصب « بعدم الايمان » . وان شئت ، قل هو متعصب في كفره كما ان غيره متعصب في ايمانه . وقد يكون كلا المتعصبين سواء

هو يقول عن نفسه انه « تقلب على مقالب التردد في الاديان من اليقين الى الشك فالنفي » ولكن هذا التردد لم تطل مدته عنده . بل طار به سريعاً الى النتيجة الاخيرة وهي « النفي » ووقف عندها منكراً نافياً داعياً الجميع الى مثل نفيه وإنكاره . وتكاد تجد في ما كتبه منذ ربع قرن مالا يزال ينسج عليه اليوم . ولم يحاول قط ان يلبس يدهُ الحديدية قفازاً من المخمل ، ولم يعمد ابداً الى الطرق اللينة . بل انه يجرح بقلمه معتقدات العقل ، كما يجرح بمشرطهِ دماميل الجسم ، ولكن دون استعمال بنجٍ او مخدّر . وهو يقرُّ بذلك اذ يقول (ص ٢٤) : « رأيتُ أن اخوض غمار

البحث غير حافلٍ بالمصاعب التي ستعترضني في هذا السبيل ، وان انخمه بتلك الصراحة الجازرة ، منكباً عن خطة الذين يرون ان الحكمة انما هي المصاداة ، لعلي ازحزح الافكار عن مألوفها ، لعلمي ان تحريك الافكار لا يكون غالباً الاّ بمثل هذه المصادرة العنيفة ... »

وهذه هي طريقته الاصلاحية . ولم نرَ في كتابه الضخم ذكراً للشفقة والرحمة الاّ مرةً واحدة حيث قال : « لماذا كل هذا الغضب على هـذا الانسان الضعيف الذي اقل احتياج من احتياجاتهِ كافٍ لان يدفعهُ الى ارتكاب الجريمة لان الاحتياج مؤلم ، فالجوع فضاح ، والحاجة قاتلة »

وعليه فاقصد هذا الطبيب الاجتماعي اذا كنت مصاباً بدملٍ او كنت ذا عضوٍ معتل ، فهو يبتره لك بلا شفقة . واذا كنت ذا جرحٍ يحتاج الى بلسمٍ او مسكن ، فاياك والدكتور شميل . فاقل ما هناك انه يكويه بالنار او بحجر جهنم

واذا كان هو يؤلمك فلأنه متألم منك ومن نظامك الاجتماعي في حاضرك وماضيك

اسمع ما يقوله عن الماضي (ص ٦) : « اني لا أتمنى لك تمدناً كتمدن عصر سقراط ، ولا تمدن باني الاهرام ، ولا تمدن الرومان ، حتى ولا تمدن عصر العباسيين ، ولا تمدن الامم النصرانية بعـد خروج الاسلام من الاندلس وقبل الثورة الفرنسوية . والا فأكون قد تمنيت لك ان تكون عبداً ذليلاً لا تملك ادنى حرية لا في القول ولا في الفكر ولا في العمل »

وليس هذا كل مبلغ غضبه على النظام الاجتماعي في الماضي بل انه يتمنى لو

احرقت كل منقولات التاريخ وما فيه من التلفيق والكذب (ص ١٠)

أما غضبه على النظام الاجتماعي الحالي فتكاد تقرأه في كل صفحة من المقدمة والخاتمة . ونكتفي بايراد شاهد واحد على ذلك وهو قوله : « صارت علوم اللغة مماحكات لا طائل تحتها ، لا كلاماً وضع للتعبير عن الفكر . والشعر اغراباً لا ابداعاً في وصف الحقائق . وعلوم الفقه سخافات يتنزل العقل فيها الى حد التبذل . والطب شعوذة لاستنزال الاسرار وتحويل الاقدار . وعلوم القوانين لاهوتاً ثانياً لا يفهم . وعلم المحاماة مخرقة وتفنناً في المشاغبات لا دليلاً مرشداً الى الحق رادعاً للباطل الخ . . . وعلى هذه المبادئ النخرة شاد الانسان بنيان نظاماته الاجتماعية المتقلقلة »

وبعد ان هدم هذا البنيان اخذ يرشد الى كيفية تشييد بنيان اجتماعي جديد . فجعل الاساس العلوم الطبيعية . فبها « يصح نظر الانسان في لغاته ، وينتظم قياسهُ في دليله ، وتقوى فلسفته بارتباطها ، وتعلو آدابه لانطباقها على العمل ، وتصلح شرائعه . . . ويتسع عقله الخ . . »

ويرى ان هذه العلوم هي « المخل الذي سيتكفل بقلب ما بني من النظامات المتقلقلة والشرائع الحائفة » . أما العلوم الكلامية فالعداوة بينه وبينها شديدة وهو يبشرها بالانقراض القريب متى ترقّى النظام الاجتماعي حسب السنة الطبيعية .

واذا استعملنا مع الدكتور شميل تشبيهاً طبياً ، فلا نكون قد خرجنا عن الموضوع : يستخرج الاطباء المصل الشافي والواقي من الامراض ، بان يلقحوا بمكروب الوباء حيواناً ما . فيتركب في دمه حالاً مادة مقاومة

لسريان الداء بموجب نواميس الطبيعة . ويزيدون كمية التلقيح يوماً فيوماً، حتى تبلغ مقداراً كان يقتل ذلك الحيوان لو لقح به دفعة واحدة . وبزيادة كمية المادة الوبائية ، تزداد كمية المادة المقاومة . ومن هذه الاخيرة يؤخذ المصل الذي يستعمل للتطعيم . . . قلْ ذلك عن مذهب الدكتور شميل ولا تكون بعدت كثيراً عن الحقيقة

أو ان شئت فاحكم عليه كما يحكم هو نفسه على العلماء وقل معه : « ان للعلماء أحلاماً كالعوام ، والعقل خزانة كثيرة الادراج » .

هذا ما يسمح المجال ببسطه عن فلسفة الدكتور المتطرفة . ولو أردنا التفصيل لما كفى الكتاب العريض الطويل . أما عبارة الشميل فهي آية في الايجاز مع اداء المطلوب . وقلما قرأنا كاتباً عربياً جاراه في هذا الاسلوب

* * *

معنى الحياة [1] ـ وكثيرنا يجهل معنى الحياة الحقيقي ولربما كان هذا الجهل سبب ما نراه في مفاوز هذه الدنيا من الرزايا والخطوب ، والتعاسة والشقاء ، والخصام والتنافر ، والضغائن والاحقاد ، ومتى فهمنا هذه الحياة بمعناها الصحيح يسود السلام في العالم ، وتعم المحبة بني البشر ، ويذوق الانسان منتهى السعادة الممكنة . طالع كتاب لورد اڤبري يتضح لك ذلك تماماً . وترى ان واضع هذا الكتاب من الفلاسفة الذين لم يضيعوا في عالم الاوهام ولا في بهرجة الكلام . ونحن في أشد الحاجة الى مثل هؤلاء

---

(١) طبع في المطبعة الادبية في بيروت ويطلب في مصر من مكتبة المعارف بالفجالة عدد صفحاته ١٥٨ وثمنه ثلاثة غروش صاغ

المفكّرين الذين ينشرون المبادئ الصحيحة ولذلك يسرنا ان نصوغ اجمل كلمات الثناء على حضرة الشاب الذكي النجيب وديع افندي البستاني الذي خدم بلاده احسن خدمة بتعريب هذا السفر النفيس وسبكه في عبارة عربية بليغة سلسة . كما انهُ يسرنا ان نرى الاقبال الذي صادفهُ هذا الكتاب فقد كادت تنفد طبعته الاولى قبل مرور العام عليها . وعن قريب سيطبع ثانية . وقد قررت مدارس المرسلين الاميركان تدريس « معنى الحياة » في مدارسها

***

نفحات الوردتين [1] ـ أو مجموع الفصول الشائقة والمقالات اللطيفة التي دبجها يراع الاديبتين المرحومتين أنيسه وعفيفة كريمتي حضرة اللغوي الشهير الشيخ سعيد الشرتوني . يفوح من هذه المجموعة اريج طيب نشرته هاتان الوردتان قبل ان يذبلها نفَس الموت السام . وخليق بنسائنا وفتياتنا أن يطالعنَ هذه المجموعة النفيسة حتى يعرفنَ الدرجة التي تبلغ اليها الفتاة الشرقية . متى تربت تربية حقيقية وصرفت أوقات فراغها بالدرس والمطالعة بدلاً من قتل وقتها وقواها العقلية بالامور التافهة . فنثني على حضرة الاديب ميخائيل افندي الشرتوني الذي حفظ هـذه الفصول الجميلة من الضياع بنشرها بالطبع . ونسأل للاديبتين الراحلتين رحمة واسعة ولحضرة والدهما المفضال عزاء وسلواناً

---

(١) طبع بالمطبعة اللبنانيـة (جسر بيروت — لبنان) عدد صفحاته ٩٦ وثمنه ثلاثة غروش